وافكرْ بانك لا تفي إعظامها ان لم تقف بتهيُّبٍ قدّامها
وتقول: أمي. ذاك نصحُ زهورِ

شركة انتشار الايمان

ومُنشئتها المكرَّمة ماري پولين جاريكو

بنسبة السنة الخمسين لوفاتها

نظر تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي

كانت آخر وصيَّة فاه بها السيد المسيح عند وداعه تلاميذه ليعود الى ابيه صاعدًا الى السماء أن: « كما ارسلني الآب كذلك انا ارسلكم وها اني قد أُعطيتُ كل سلطان في السماء والارض اذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل لكلّ الخليقة وتلمذوا كل الامم معمدين أياهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به وها انا معكم كل الأيام الى منتهى الدهر »

فهذا الكلام الالهيُّ كان في الكنيسة بمثابة تلك الكلمة الخالقة التي لفظ بها عزَّ وجلَّ في اوَّل العالم اذ أنهُ « قال فبرزت الموجودات من العدم أمرَ فلبَّت الكائنات لامره المطاع ». قال مرقس الانجيليّ: « فخرج اولئك وكرزوا في كل مكان والربّ يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات المقارنة له »

وقد ورثت الكنيسة الكاثوليكيَّة من رسل المسيح روح غيرتهم لنشر معتقداتها في اربع خوافق العالم لعلمها بان احدى سماتها المميزة لها من بقيَّة الاديان ومن سائر الكنائس المنفصلة كونها جامعةً اي منبثَّة في العالم كله. وترى آباء الكنيسة ومعلميها في كل كرور الاجيال اذا ما تجادلوا مع اهل البدع الخصوهم بذكر هذه الصفة الخاصة

انَّ الكنيسة البطرسيَّة فضلًا عن أُلفتها واتفاق اعضائها في المعتقدات واتصال سلسلتها بالرسل هي وحدها كاثوليكيَّة اي جامعة لا تخلو منها الاقطار الاجنبيَّة مهما كان بعدها وذلك منذ عهد الحواريين فان بولس الاناء المصطفى اوَّل ما يشكر

عليه إلهه في رسالته الى الرومانيين « انَّ ايمانهم يبشر به في العالم كله »

ومن المستحيل ان نتتبع هنا رسالات الكنيسة الى دولة دولة وامَّة امَّة ونفصِّل ما أتاه المرسلون من الاعمال العجيبة ليخضعوا الى نير المسيح اعزّ الملوك شأناً وآبى الشعوب أنفة واعرق العشائر في الهمجيَّة. وانما نكتفي بذكر الرسالات التي قام بها رسل الكنيسة الكاثوليكيَّة في القرن التاسع عشر وما اجراه الله من الاعمال السامية في كل انحاء المعمور على يد فتاة افرنسيَّة خاملة لتوطيد اركان تلك الرسالات ومساعدة اصحابها في اتمام مهمَّتهم الشريفة

*

كانت الرسالات الكاثوليكيَّة منذ اكتشاف العالم الجديد قد دخلت في طور منظَّم فيلتجئ الاحبار الرومانيون وملوك الفرنج الى الرهبانيَّات ويطلبون من رؤسائها بعض رهبانهم ليفتحوا في البلاد الاجنبيَّة والمستعمرات الدوليَّة رسالات كان اولئك الملوك يقومون عادةً بنفقاتها فيسعى الرهبان بتعليم تلك الامم وتهذيب اخلاقهم واستئصال الخرافات الجارية عندهم ريثما يجعلونهم رجالاً جدداً وشعوباً راقية كبقيَّة الشعوب المتمدِّنة بفضل الدين النصراني. وقد شهد كل الشهود العيانيين الذين زاروا البلاد التي احتلَّها المرسلون انهم ادركوا ما لم يستطع بشر الفوز به بهمَّتهم وفضائلهم السامية وكثيراً ما اهرقوا دماءهم في سبيل تبشير اولئك الامم حتى انتزعوا من قلوبهم كل تباغضهم الغريزيَّة واشربوهم روح التقى والتمدُّن الصحيح

تلك كانت حالة الرسالات الكاثوليكيَّة مزدهرةً اي ازدهار اذ هبَّ ذاك الإعصار الهائل الذي قلب اوربَّة ظهراً لبطن نزيد به الثورة الفرنسويَّة التي نفخها الروح الشرير في اعظم الدول رونقاً وبهاء فقوَّض اركانها وكاد يطمس آثارها

فكان لهذه الثورة صدى انعكاس في كل الاقطار الاجنبيَّة حيث كان المرسلون يضحُّون نفوسهم لتنوير الامم المتسكعة في ظلام الجهل والهمجيَّة فأُلغيت الرهبانيَّة اليسوعيَّة ولم يعد بقيَّة المرسلين ينالون من مواطنهم المساعدات الماليَّة التي كانوا يستعينون بها لتهذيب الوثنيين ولتشييد الكنائس وفتح المدارس وبقيَّة المشروعات الخيريَّة. فما لبث أن قلَّ عددهم وصارت تلك الرسالات الى حالة مشئومة حتى عُدَّت اثراً بعد عين

ولمَّا خمدت الفتن ورجعت اوربَّة الى سكينتها وعاد للدين مقامهُ في النفوس واستأنفت الرهبانيَّات اعمالها المبرورة لم ينسَ الاحبار الرومانيون الرسالات الاجنبيَّة قياماً بامر السيد المسيح ان يُكرَز بالانجيل في العالم كلهِ. فاخذ مجمع انتشار الايمان في طلب الرسائل لتجديد تلك الرسالات ودعوة الامم الى الدين المستقيم

غير انَّ عملاً كهذا كان يستدعي من البالغ ما لا يسع الكرسي الرسولي والرهبانيَّات وحدها ان تقوم بكلفهِ الباهظة. لكنَّ يمين الله لم تقصر وهو الذي وعد ان يكون مع كنيستهِ الى منتهى الدهر فاراد سبحانهُ وتعالى ان يظهر قوَّتهُ على يد فتاةٍ ضعيفة انتدبها الى هذا المشروع الذي ينوء تحت عبئهِ الجبابرة وذلك لانَّ اعمال الله تلوح خاصة بضعف الآلات التي يتوسَّل بها لانجازها وفقاً لقول الرسول (١ كور ١ : ٢٧) «اختار الله الضعيف من العالم ليخزي القوي واختار الله الخسيس من العالم والحقير وغير الموجود ليعدم الموجود لكي لا يفتخر ذو جسدٍ امامهُ»

وهذه خلاصة ترجمة تلك الآنسة الشهمة وخادمة الله:

پولين ماري جاريكو (Pauline- Marie Jaricot) رأت النور في مدينة ليون في ٢٢ تموز سنة ١٧٩٩ وكان اصلها من عائلة صالحة سكب الله عليها غزير نعمهِ وافاض عليها سجال فضلهِ ماديًّا وادبيًّا فجمعت بين خيرات الدنيا والكنوز الروحيَّة. وما كان غنى والديها بالاموال الأثمرة مساعيهما وكدّهما في الشغل. فان اباها انطون جاريكو كان الثالث عشر من اولاد رجل زراعي فاضل دخل بعد وفاة ابيهِ في احد معامل الحرير في ليون فتقدَّم وتوفَّق باعمالهِ الى ان فتح معملاً على حسابهِ ادارهُ بهمَّة وحكمة ونال ثروة واسعة. ولمَّا حان وقت زواجهِ لحظ يوماً في كنيسة من كنائس ليون فتاة لم يعرفها كانت تلوح على محيَّاها لوائح التقى والطهارة واذ سأل عنها وعرف انها لبنة فريدة الآداب من اسرة شريفة فاضلة لكنها قليلة المال طلب ان يقترن بها مفضّلاً الادب والتقى على كل حطام الارض. وكان اسم الفتاة جان لاتيه (Jeanne Lattier) فكان هذا الزواج المسيحي موردًا لنعم الله الوافرة على الزوجين الفاضلين فاخذا يتسابقان كخيل الرهان في اعمال البرّ

وعما مع ذلك يعتنيان في تنشية ثروتهما بتحسين الادوات الحريريَّة وتوفير الوسائل الاقتصاديَّة

وما لبث ان ابتهج قلب الابوين بولادة ثلاثة اولاد صبي فبنتين اجتهدا في تربيتهم بكل حرص وتقى. وبينما كانا يرشفان من العيش لرغده اذ بُليت فرنسة بتلك الثورة العظمى التي حوَّلت البلاد الى منتنع من الدم. وكان اصحابها يتعقَّبون خصوصاً ارباب الدين فيحبسونهم ويوسعونهم هوانا ويقتادونهم باسم الحريَّة فاضطرَّ اكثرهم الى ان يهاجروا الى البلاد الاجنبيَّة او يختفوا في منازل الخاصة. وكان المسيو جاريكو وقرينتهُ ممن اسرعوا الى مساعدة الكهنة المنكوبين بالمهم ونفوذهم. واذ بلغ ذاك الوطنيَّ الحرَّ انَّ زعماء الثورة اتوا لفتح مدينة ليون انتظم في سلك جنودها الامناء ليردَّ غاراتهم. الَّا انَّ الفوضويين استولوا على تلك الحاضرة واخذوا يسفكون دماء من لا يجاريهم على اعمالهم القبيحة وجعلوا لمن يأتيهم برأس المسيو جاريكو جزاء كبيراً. فلم يبق له وسيلة للنجاة سوى الفرار من وجه اولئك الوحوش الكاسرة. فولى هارباً ثم تبعتهُ امرأتهُ مع اولادهما الثلاث الحديثي السنّ فنجت بعون الله ولقيت زوجها فعاشا في النزلة مستخفيين حتى عاد للوطن شيءٌ من الهدوء فامكنهما ان يؤوبا الى دارهما

وولد لهما في تلك الايام الصعبة ثلاثة اولاد آخرين كانت بولين خاتمتهم. وقد لحظت أمها منذ نعومة اظفارها رقَّة طباعها وحنوَّها على الفقراء ورسوخها في التقى والصلاح فشكرت الوالدة ربَّها على كونه منحها ابنةً مثلها فلم تدَّخر وسعاً في تهذيب عقلها وتثقيف اخلاقها ولمَّا بلغت اشدَّها جعلت تأخذها رفيقةً في صلواتها وصدقاتها وكل مبرَّاتها. وكثيراً ما كانت تناجيها وتصف لها عجائب الخالق وتحبب اليها كل المشروعات الخيريَّة واعمال الغيرة الرسوليَّة لخلاص القريب

فترعرعت الفتاة وقلبها يتلهب حبًّا لله ورأفة على البائسين فما كانت تجد راحة وسلواناً الَّا في الصلاة او في خدمة الفقراء. وكانت اذا رافقت أمها الى الكنيسة وانتهت هذه من صلاتها فدعتها الى البيت استقصرت الزمان وطلبت من والدتها ان تسمح لها بمناجاة الله امام القربان الاقدس قائلة: «ارجوكِ يا امي ان تتركيني بعد بجوار يسوع المحبي لاني ارائي سعيدة بقربهِ ولا ترسلي احداً يوافقني الَّا بعد زمن

طويل ». وقد كتبت فيما بعد عن نفسها: « اني كنت حينئذٍ اتكلم مع يسوع ربي كما اتكلم مع امي فاكشف له افراحي واحزاني الصغيرة وابوح له بنقائصي واعرض عليه رغبتي الشديدة في ارضائه »

اما حنانها على المساكين فكانت تتفنن في ان تظهره لهم في كل حين فلا تدع واحداً منهم يعود فارغ اليدين فتارةً تقاسمهم طعامها وتارة تجود عليهم بما أعطي لها من الدراهم لحاجاتها او تلح على اهلها لتنال منهم صدقةً لمساعدتهم صغاراً وكباراً

واذ رأت يوماً وهي لم تبلغ عشر سنوات من العمر السقاة يستقون من بئر في بيت ابيها ماء والماء لا يقلّ سألت امها: كيف لا تُنزح البئر ولا ينفد ماؤها مع كثرة الماء المستخرج منها؟ فقالت لها امها: « لانّ الينبوع الذي يجري الى البئر لا يُنزح ابداً ولا يقلّ » فاردفت بولين: يا ليت لي يا امي بئراً من ذهب لا ينفد لكي اقدر ان اسعف كل الفقراء ولا يعود احد يبكي ». فشرعت الام الحكيمة تبين لابنتها الصغيرة انّ الصدقات المادية تنفد كلها لكنّ للانسان صدقةً اخرى لا تفرغ ابداً وهي الصلاة الى الله كي يلهم الفقراء صبراً على اوجاعهم وتسليماً لارادته تعالى وان يمنحهم عزّ وجلّ ما لا نستطيع نحن ان نجود به لتلطيف بؤسهم

وكما كانت بولين تفكر في المساكين لتسعفهم في ضروريات العيش كانت ايضاً ترغب في خلاص النفوس. ولما سمعت يوماً اخاها المدعو فيلياس يخبرها بانّهُ يوجد في الاقطار القاصية وثنيون وشعوب لا يعرفون الله خالقهم وانّهُ هو يريد ان يذهب الى تلك البلاد ليبشرهم بالايمان ويموت شهيداً فيسمو باستشهاده عدد المؤمنين. صرخت بولين انها تريد ان تسير معهُ لتعتني بالمرضى وتعلم الاولاد الصغار وتهتمّ بتزيين الكنائس وتموت مثله. واذ اجابها اخوها انها لا يمكنها السفر الى تلك الاصقاع لضعفها اغرورقت عيناها بالدموع ولم تتمزّ الى أن افهمها انها تستطيع ان تربح نفوساً كثيرةً بصلواتها وبالحسنات التي تجمعها فترسلها له وهو يصرفها في خير البلاد الاجنبيّة لانقاذ الاولاد الصغار من الموت

وكان للسيو جاريكو في تلك الاثناء قد اصبح من اعظم تجّار الحرير في مدينة ليون معدوداً بين اعيانها وافاضلها ولوفرة ثروته وعموم فضله ودينه اقبلت عليه

اشرف العيال طالبةً ان ترتبط مع اسرته بالزواج . فزوَّج بنيه وبناته الا فيليبس الذي دخل في مدرسة سان سولبيس ليعدّ نفسهُ للكهنوت وبولين التي كانت افكارها منصرفةً الى اعمال الخير . وقد سرَّها ما سمعتهُ يوماً من والدها : « ان مستقبل بولين لا يقلقني فانَّ الله على ما يظهر قد اختصَّها لخدمتهِ » . واذ ارادت امها يوماً ان تختبرها وتسبر غور افكارها جعلت تصف لها ما ينتظرها في العالم من رغد العيش والهناء التامّ اذا ما اقترنت بالزواج مع احد شبَّان ليون المعتبرين المشهورين بالثروة والدين . لكنَّ بولين قاطعت أمها قائلة : « او لعلَّك يا امَّاه تريدين ان تمنعيني عن تلبية دعوة الله . فهيهات ان اختار لي غير الرب حصة فهو حسبي ولن ارضى بكل زخارف العالم » . فكان جواب الامّ بدموعها الى ان قالت لكريمتها : « معاذ الله يا ابنتي ان احول دونك والله قرين نفسكِ . فان كان هو اختارك لخدمتهِ فكوني اهلاً بختنكِ الالهي »

وكانَّ كلام الام هذا اصبح كوصاتها الاخيرة لابنتها لأنها توفيت بعد قليل وفاة الابرار . فبكتها بولين وكانت تتذكر امثالها الصالحة فتتعزى نفسها بذكرها

وكانت بولين جامعة في شخصها كل ما يجتذب القلوب من الجمال الفتَّان وخلابة اللسان ورشاقة الحركات ولين العريكة والرزانة فكانت تسمع الناس يطرئون محاسنها ويثنون على اخلاقها ولعلَّ هذه المدائح كانت عملت في قلبها لولا انَّها حضرت يوماً عظة لاحد الكهنة الصالحين يُدعى ثورتس (Wurtz) كانت اختها المتزوجة تراع الى مشورتهِ وارشادهِ فسمعتْ بولين مرَّةً وهو يسترسل في الكلام عن اباطيل العالم وغروره واخطاره التي تتهدَّد النفوس وتوقعها في فخاخهِ القتَّالة . فكان لهذا الخطاب وقعٌ عظيم في قلب بولين فما نزل الواعظ من منبر الخطابة حتى طلبت مواجهتهُ واعترفت اليهِ بكلّ خطايا حياتها وكشفت لهُ نعم الله اليها واتخذتهُ كمرشدها الروحي . ولمَّا انكفأت راجعة الى البيت نزعت عنها كل الثياب العالميَّة وارتدت باثواب خشنة بنفسجيَّة قاتمة واستغفرت جهاراً من كل الاهل والاقارب عمَّا صدر عنها من امثالها الرديَّة وطياشتها . فتأثر الحضور من كلامها وقبَّلها ابوها قائلاً : « اننا لم نعرف لك غير الاعمال المشكورة فباركك الله ولرشدك الى كل صلاح »

والحقّ يقال انَّ سيرة بولين اضحت مذ ذاك الحين وهي في بيت والدها اشبه بسيرة النسَّاك او الراهبات الاشظف عيشاً والاشدّ زهداً فنزعت عنها كل ما كان لها

من الحلي والمصاغات فقدَّمتها للمصلوب ثمَّ باعتها ووزَّعت قيمتها على الفقراء. وكذلك فساطينها اصطنعت منها حللًا للكنائس كما أنَّها اخذت تزين الهياكل بالزهور التي كانت تزدان بها قبلًا

ولم تكتفِ ابنة جاريكو بان تخدم الله وتعيش بالزهد والصلاح بل ارادت ان تكون لاهل البيت ولمن يقترب اليها قدوة حيَّة لكلِّ اعمال البرّ. وكان ارتداد اخيها بيلياس على يدها فبعد ان استلم مدَّة الاهراء زهد في الدنيا وانتظم في سلك لاكايروس وصار يجاري اختهُ في كل فضائلها وكانا يتراسلان بالتواتر ورسائلهما كلها مفعمة بروح التقى والغيرة في حب الله وخلاص النفوس وكان اخوها قاصدًا بعد دروسهِ الكهنوتيَّة ان يذهب الى الرسالات الاجنبيَّة لكنَّ الموت حال دون رغائبهِ فمات موت اولياء الله

وكانت بولين تهتمُّ في اثناء ذلك بتربية اولاد اختها واخواتها وتسعى ان تطبع في قلوبهم منذ حداثة سنهم العواطف الدينيَّة والفضائل المسيحيَّة. وكذلك خدَّام البيت وعمَّالهُ فانَّها افرغت مجهودها في اصلاح سلوكهم وتسييرهم على مقتضى الواجبات الدينيَّة

ثمَّ اخذت تجمع في بيتها بنات من العاملات والإماء كانت تقضي زمانها في ارشادهنَّ والصلاة معهنَّ. ثمَّ اختارت بينهنَّ اعظمهنَّ غيرة وانشأت لهنَّ شركة دعتها « شركة المعوِّضات لقلب يسوع عن الاهانات اللاحقة بهِ » كانت غايتهنَّ التكفير عن ذنوب البشر وآثام الخطأة الذين يجرحون قلب الله بما يقترفونهُ من المآثم. فنمت هذه الشركة بعد قليل وكانت اعضاؤها يأتين من اعمال التقشف والاماتات ما يقضي منهنَّ العجب

وكان في مدينة سان ڤاليه (Saint - Valliez) لاحدى اخواتها مادام شرترون (Mme Chartron) معمل كبير تُصطنع فيهِ الاقمشة المعروفة بالبرنجك تشتغل فيهِ نحو مائتي عاملة من فتيات النواحي. الَّا انَّ اكثرهنَّ كنَّ منقادات الى الفساد منهمكات في اباطيل العالم لا يعرفن من الدين اصولهُ ومبادئهُ الاولى. فكان المسيو شرترون وامرأتهُ يتأسفان على هذه الحالة التعيسة ويرغبان في تهذيب اولئك البنات فحاولت بولين ان تهديهنَّ الى الصلاح فلازمتهنَّ واخذت تؤدي لهنَّ كل الخدم

التي بوسعها وتستعلم عن اشغالهنّ وعيالهنّ وتعودهنّ في امراضهنّ. فكان مثلها يؤثّر فيهنّ لاسيما اذ رأين ابنة شريفة لابسة بكلّ احتشام وسائرة معهنّ بكل لطف وانس. فتقرّبن منها واخذن يصغينَ لكلامها وارشاداتها حتى امكنها بعد قليل ان تسنّ للمعمل نظاماً قانونيًا صارماً اوجبت على الجميع ان يسيروا بمقتضاه وكان من قوانينه انّ العاملات يبتنّ في المعمل ولا يخرجنّ منهُ الّا برخصة خاصّة. ثمّ دعت كاهناً غيوراً اسمهُ بلوتون (Bloton) ألقى عليهنّ الارشادات التي زرعت في قلوبهنّ بذور التقى والعيشة الصالحة فصارت الفتيات يستقبحنّ طياشتهنّ الماضية وامسكنّ عن كل كلمة سمجة وجعلن لبسهنّ مطابقاً لحياتهنّ بل اخذن يثابرنّ على الاسرار ويعكفنّ على كل الفرائض الدينيّة ونفينّ من جماعتهنّ كل فتاة لا تقتدي بهنّ

فصار ذلك المعمل بعد قليل اشبه بدير تُقام فيه كل الرياضات التقويّة وتُمارس كل الفضائل المسيحيّة. وكانت بولين في مقدّمة الجميع تبعث الهمم وتنشط القوى بمثلها وكلامها. فكان يكفيها كلمة بل اشارة لتتسارع الفتيات العاملات الى سؤلها. وكنّ في وقت الفراغ على مثالها يزرنّ القربان الاقدس في معبد كانت بولين عُنيت بتشييده قريباً من معامل اختها

ولمّا عرضت عليهنّ ان يشتركنّ في شركة التعويض التي كانت انشأتها في ليون اجاب اكثرهنّ الى طلبها فجعلن يقدّمن للقلب الالهي اعمالهنّ واتعابهنّ تكفيراً عن اهانات البشر لعزّته تعالى. ومن الادلّة على غيرتهنّ انّهُ لما حدثت في فرنسة ثورة عظيمة ارتعبت لها القلوب طلبت بولين ان يختاروا من الفتيات اربعين بنتاً ليعشن يوماً كاملاً على الخبز والماء لردّ غضب العدل الالهي عن الوطن. فسألت جميع العاملات دون استثناء ان تُدوّن اسماؤهنّ لاتمام هذا العمل الباركّ فصُمنَ ودامت بعضهنّ على هذا الصوم القشف مدّة اربعين يوماً

وطلبت منهنّ يوماً آخر ان يعملنَ تساعية للغاية ذاتها يتلونَ فيها الصلاة الربيّة والسلام الملائكي خمس مرّات بتصليب ايديهنّ لاكرام آلام المسيح فقمنَ كلهنّ بهذه العبادة بل واظبنَ عليها بعد نهاية التساعيّة فجرت كعادة بين العاملات

*

فهذه المشروعات التقوية وغيرها أهلت بولين الى عمل آخر وسولي ألهمها الله اياهُ

في اثناء ذلك. كان قلب بولين جاريكو متقداً بحب الخالق كأتون النار لا تجد راحةً الا بتمجيد اسمهِ تعالى وبالسعي الدائم في نشر محبتهِ. وقد ألفت السنة الثالثة والعشرين من عمرها كتاباً تقوياً في سرّ القربان وعبادة قلب يسوع طبعتهُ في ليون سنة ١٨٢٢ وضمنتهُ شواعر قلبها المضطرم بالحبّ الالهي وهي تصرّح هناك بأنها مستعدّة لان تُكابد كل عذابات العالم لتنال امنيتها في نشر ملك المسيح وبَعْث الغيرة الرسوليّة في قلوب الكهنة

وكان فيلياس اخوها في مدّة دروسهِ الاكليريكيّة يراسل بعضاً من المرسلين الفرنسويين في الشرق الاقصى فيصفون لهُ احوال البلاد التي يبشرون فيها وحاجات اهلها فيسرّ بكتاباتهم ويسعى بجمع بعض الصدقات يرسلها اليهم ليساعدهم في تنصير الوثنيين. لكنه رأى بعد قليل انَّ هذه الحسنات الموقتة لا تفي بالمقصود فعرض على اختهِ بولين لما يعرف من غيرتها الملتهبة بان تسعفهُ وتحرّض بعض اهل الكرم على مساعدة المرسلين في مبثّتهم لانقاذ اولئك المتسكعين في ظلام الوثنيّة

فاخذت بولين تهتم بطلوب اخيها فتجرّدت عمَّا كان في يدها من المال او ما كان يعطيها ابوها من الدراهم. وكانت لا تعرف السأم حتى تجمع من معارفها وصديقاتها ما تستطيع لاسعاف المرسلين وتطلعهنَّ على رسالاتهم لتحرك قلوبهنَّ على الجود والكرم. ومن العجب العجاب ان العاملات الفقيرات كنَّ يسبقنَ السيدات الغنيّات في مساعدتهم وكانت فتيات معمل اختها اوَّل من اجاب الى طلبها فكنَّ في كل اسبوع يفرزنَ شيئاً من اجرتهنَّ للمرسلين في البلاد القاصية

لكنَّ هذه المبالغ التي كانت تجمعها بولين وترسلها الى المبشرين على يد اخيها ما كانت مع وفرتها لتأتي بفائدة كبرى اذ لا تسدّ غير حاجات بعض المرسلين لوقت قصير فكانت ليلاً مع نهار تفكر في الوسائط لتوسيع نطاق اعمالهم الرسوليّة ومساعدتهم على طريقة منتظمة لينشروا الدعوة المسيحيّة بانشاء المشروعات الدينيّة كتشييد الكنائس وفتح المدارس وانشاء المعاهد الخيريّة كالمياتم والملاجئ والمستوصفات وفكّ اغلال العبيد وانقاذ الاسرى. وكل ذلك لا يقوم بهِ المرسلون الّا بالقناطير المقنطرة من المال فكيف العمل لسدّ مثل هذا الخلل؟ فكان هذا المشكل يشغل نفس بولين فتطلب من الله ان يلهمها حلًّا مرضياً لهُ

ففي بعض ايام الشتاء من السنة ١٨١٩ اجتمعت افراد عائلتها في نادي الدار ليصطلوا حول النار ويتلهوا ببعض الالعاب. اما بولين فكانت جالسة وحدها في احدى الزوايا اذ عنّ لها فكر كاللمع البارق ارتكض له جنانها فنظرت على بغتة مشروع شركة انتشار الايمان بصورته الحقيقيّة والسهلة معاً وذلك بان تعيّن بعض معارفها واصحابها فتؤلف كل واحدة مجموع عشرة اشخاص وتجمع من كل واحد من فرقتهم عشر بارات في الاسبوع اي فرنكين و٦٠ سنتيماً في السنة ثم تجعل لكلّ عشر عشرات رؤساء مئات يستلمون حسنات العشرات . وكذلك رؤساء الالوف يجمعون صدقات رؤساء المئات فيبلغون الدراهم المجموعة الى مركز واحد حيث تُقام لجنة لتوزيع تلك المبالغ على رسالات المرسلين في كل انحاء المعمور

فما لاح لبولين هذا الفكر حتى عرضتهُ على مرشدها الذي علم انّ اصبع الله هناك فحضّها على اخراجه الى حيز العمل فبدأت بنشاط عظيم واقبل كثيرون ليتنظموا في سلك الشركة . لكنّ الشيطان ادرك ما سيصيبهُ من جرّاء هذا المشروع من الخذلان والخزي فسوّل لكثيرين ان يتصدوا لهُ فاخذوا ينسبون مشروع الفتاة بولين الى غايات بشرية كحبّ الذات والفخفخة والتفرّد في الرأي فسلقوها بألسنة حداد لكنّ الله لم يهملها فواصلت العمل دون سأم شاكرةً لهُ تعالى على ما نالها من تعيير الناس وسوء ظنهم فيها . وزادها نشاطاً انّ بعض الاساقفة والحبر الاعظم بيوس السابع بلغهم خبر هذه الشركة فأثنوا على بولين وآزروها ببركتهم وتمنّوا لو تنتشر شركتها في كل الانحاء . وفي ٣ ايار من السنة ١٨٢٢ اجتمع اثنا عشر رجلاً من كاثوليك ليون تحت نظارة كاهن غيور ودرسوا قوانين الشركة كما سبقت اليها بولين جاريكو واتخذوا الوسائل لتوطيد اركانها وتوسيع نطاقها في كل العالم الكاثوليكي . والشركة تعتبر ذلك اليوم كمنشأها وتحتفل كل سنة بذكرهِ فتعقد فيهِ حفلة دينيّة يترأسها رؤساء الشركة واحبار الكنيسة ومشاهير الرجال

وقد امتدت هذه الشركة منذ ذاك الحين امتداداً عجيباً في خمسة اقطار العالم ولاسيما بعد ان صدرت عدّة براءات للاحبار الرومانيين لحضّها لغريغوريوس السادس عشر وبيوس التاسع ولاون الثالث عشر الذين حثوا على هذه الشركة وحضّوا المؤمنين على الانتظام فيها واغنوها بالمقادير العديدة مع سهولة قوانينها وهي ثلاث

لا غير: ١° ان يدوّن المشترك اسمهُ في سجلّ احد رؤساء الجمعيّة ٢° ان يتلو كل يوم مرّة واحدة الصلاة الربيّة مع السلام الملائكي والنافذة الآتية الى شفيع الرسالات الاجنبيّة: يا مار فرنسيس كسفاريوس تضرّع لاجلنا ٣° ان يعطي كل اسبوع عشر بارات لرئيس فرقة العشرة الذي هو من جملتها

وهنا لا نرى بدًّا من القاء النظر على هذه الجمعية التي منذ تسعين سنة افاضت على الامم الاجنبيّة من ثمار الخلاص والرقيّ ما لا يعلم به غير الله ودونك نظرًا عامًا عن مدخولات ومصروفات هذه الشركة في السنة المنصرمة. كان مجموع حسنات شركة انتشار الايمان في السنة ١٩١١ بالغًا ٧,٢٧٤,٢٢٦ فرنكًا بزيادة ٢٨٧,٥٤٨ فرنكًا على السنة السابقة ١٩١٠ جمع من هذه المبالغ في فرنسا ٣,٠٢٥,٧٨٨ وفي الولايات المتحدة ١,٤٠١,٦٧٥ ف ثمّ في المانية ٥٣٧,٦١٢ ف يُضاف اليها ٣٩٢,٩٥٠ في مقاطعتي الزاس ولورين. ثمّ في بلجيكة ٣٥٩,٩٥٢ ف ثمّ في ايطالية ٢٥٣,٢٥٧ ثمّ في اسبانية ٢٢٠,٩٤٧ ثمّ في انكلترة ٨٢,٩٧١ ثمّ في النمسة ٥٤,٥٧٥ الخ وقد وزّعت هذه المبالغ على اكثر من ٣٠٠ رسالة اجنبيّة في جهات العالم حيث يشتغل نيف و ٢٥٠ اسقفًا و ١٣,٠٠٠ كاهن والوف مؤلفة من الاخوة والمعلمين والراهبات. وفي هذه الرسالات قد شُيدت ٢٠,٠٠٠ كنيسة و ١٥٠ مدرسة اكليريكيّة يستعدّ فيها للكهنوت الوف من الكهنة الوطنيين. وهناك ١٥٠٠٠ مدرسة ومئات الوف من الدارسين هذا فضلًا عن عدد لا يُحصى من المشروعات الخيريّة كالمستشفيات والميتم والملاجئ. وعدد المتنصرين الجدد البالغين في كل سنة ينيف على ١٥٠,٠٠٠ ما عدا المعمّدين من ابناء النصارى وصغار الوثنيين

ثمّ لشركة انتشار الايمان منشورات اخصها نشرة « الرسالات الكاثوليكيّة » (Missions Catholiques) التي تصدر مرّة في الاسبوع وهي تطبع مصوّرة في ثماني لغات في الفرنسويّة والايطاليّة والالمانيّة والهولنديّة والاسبانيّة والانكليزيّة والبولونيّة والمجريّة. وللشركة نشرة اخرى تظهر مرّة كل شهرين تحتوي اخبار الرسالات الكاثوليكيّة (Annales de la Propagation de la Foi) يبلغ عدد نسخها ٣٠٠,٠٠٠ ويُنشر مثلها في ١٢ لغة

فترى من هذه اللائحة الموجزة ما تجري من الاعمال الرسولية في كل اصقاع

العالم بساعي شركة انتشار الايمان وما يعود لبولين جاريكو من الفضل بانشائها . ويا ليت هذه الشركة تنتشر في كل مدن الشرق بين جميع الكاثوليك فيشتركون بكل النعم والبركات التي تجري على ايدي المرسلين في كل انحاء المعمور

*

ولنعودنَّ الآن الى ترجمة بولين جاريكو ولنقل انَّ هذه الشهمة الفاضلة لم تجتزئ بذلك العمل الجبَّاري السابق وصفهُ اي شركة انتشار الايمان بل انشأت عملين آخرين كادا يوازيانها نفعاً وخطراً اولهما عبادة « الورديَّة الحيَّة » (le Rosaire Vivant) والآخر شركة المعامل المسيحيَّة (L'Usine chrétienne)

فباشرت بعبادة الورديَّة الحيَّة سنة ١٨٢٦ رغبةً منها ان تنشر اكام البتول الطاهرة على طريقة سهلة في البلاد المسيحيَّة وخصوصاً بين طبقات الشعب . فكان المشتركون في هذه الجمعيَّة يقتسمون فرقاً كل فرقة خمسة عشر شخصاً على عدد اسرار الورديَّة الخمسة عشر فيقترعون عليها في اوَّل الشهر فاي سرّ وقعت القرعة عليه لاحدهم تلا كلَّ يوم بيتاً من الورديَّة متأملاً في ذاك السرّ . واذا انتهى الشهر عادوا الى القاء القرعة وهلمَّ جرًّا . ويتولى تدبير كل فرقة واحد يُدعى غيوراً

فهذه العبادة القريبة المنال المنعشة لروح الدين انتشرت في كافة بلاد اوربَّة واثبتها البابا غريغوريوس السادس عشر في رقيم تاريخهُ ٢٧ كانون الاوَّل سنة ١٨٣٢ ومنح اعضاءها النعم الروحيَّة وجعل لها كرديناً لا يراعي امورها ثمَّ قلَّد البابا بيوس التاسع تدبيرها رؤساء الرهبانيَّة الدومنيكانيَّة العامين فهم متولون اليوم ادارتها

وكان الحبر الاعظم غريغوريوس السادس عشر يعزُّ بولين جاريكو ويثني على همتها ويشكر الله الذي اقام في فرنسة فتاة مثلها تنعش في القلوب عواطف البرّ والتقى على انَّ هذه الاعمال التي كانت بولين خصت بها حياتها انهكت قواها واضعفت مزاجها فقضي عليها ان تلزم الفراش . وفي تلك الاثناء في نيسان من السنة ١٨٣٤ حدثت في ليون فتنة عظيمة اثارها الجمهوريُّون والفوضويون فالتحم القتال بينهم وبين المحافظين وضُربت المدافع وانتشر الاوباش في البلد يقتلون وينهبون . وصرخ بعض الغوغاء : هلمَّ بنا الى تلّ فورفيار لنحارب سيدة الكاثوليك وشفيعتهم

وكانت بولين والبنات اللواتي تهتمّ بأمورهن يسكنّ في دار قريبة من كنيسة فورڤيار فبلغهنّ امر الثوّار وشملهنّ الخوف جميعهنّ ولم يرين وسيلة للخلاص الّا ان يلتجئن الى الاسراب الواسعة التي تحت معبد فورڤيار لكنهنّ خفن ان يزعجن امهنّ في مرضها الثقيل. امّا هي فلمّا علمت بالخطر اشارت اليهنّ بان ينقذن القربان الاقدس قبل كلّ. فخرجن والقربان يتقدّمهن وفي ايدهنّ الشمع وحملن بولين على فراشها وكان رصاص العدوّ يدوي حولهنّ فلم يُصَبن باذًى حتى بلغن تلك الاسراب وفيها اختفين مدّة خمسة ايام في رُعب متواصل الى ان انتصر المحافظون وصعدوا الى تلّ فورڤيار مترنمين بتسابيح مريم البتول التي نجّت المدينة

فرجعت بولين مع بناتها الروحيّات الى دارها ونُقل اليها القربان بحفلة حافلة حضرها قوم غفير بكل خشوع واكرام. لكنّ المرض قد تثاقل على بولين حتى ظنّ كثيرون انّها تموت لا محالة بعد قليل فتزوّدت باسرار الكنيسة واعدّت نفسها بكلّ حرارة لآخرتها

وهي كذلك اذ نقلت الجرائد انّ الاثريين اكتشفوا في ديامبس رومية جسد احدى العذارى الشهيدات المدعوّة فيلومينا وانّ ذخائرها نُقلت الى مدينة موغنانو (Mugnano) حيث جرت عدّة معجزات باهرة بشفاعتها. فشعرت المريضة برغبة عظيمة الى ان تسافر الى ايطالية لتستمدّ من الشهيدة شفاءها وطلبت ان يُسمح لها بالسفر لكنّ الطبيب مع اهلها ومعارفها رأوا ان سفرها ضربٌ من الجنون وهي مدنفة على الموت لكنها لم تزل تلحّ عليهم حتى أيسوا من اقناعها فرخّصوا لها بالسفر وهم متأكدون انّها تموت في الطريق اوّل يوم رحلتها فسافرت ومعها الكاهن مرشد بناتها وامرأتان من اصحابها وكلهم في عربة اذ لم يكن في ذاك الوقت سكك حديديّة. وكان السفر يجري بهدوء حتى وصلوا الى قمة جبل الالب فهناك اتى يوماً ولد بهي المنظر وتقرّب من العربة وقدّم للمريضة وردةً ذات عرف وشكل غريبين ثمّ تولى عن العيان من ساعته فعدّه رفقة بولين ملاكاً من الرب ارسلتهُ العذراء شكرًا لتلك التي انشأت شركة الورديّة الحيّة

وبعد ايّام وصلت بولين الى رومية على آخر رمق لكنها واثقة بشفائها فطلبت من البابا غريغوريوس السادس عشر ان يسمح لها بزيارته وطلب بركته فسرّ الحبر

الاعظم لمرآها سروراً عظيماً واثنى على مشاريعها الشريفة في خدمة الكنيسة وباركها ثمَّ طلب منها ان لا تنسى ان تصلي لاجله « عند دخولها في السماء » قال هذا وهو يرى انها ميتة لا محالة. فاجابتهُ بولين انها تفعل لكنها اردفت قائلة: « وان شفتني القديسة فيلومينا الشهيدة أتسمح أيها الاب الاقدس باكرامها في الكنيسة ». فاجاب امام الاحبار « لا شكَّ في ذلك لانَّ شفاءك اعجوبة من اكبر العجائب »

ثم استأنفت بولين سيرها وانتشر خبر وصولها فاقبلت الجموع لتنظرها. وكان دخولها الى موغانو اشبه بنقل جنازة الى المدفن. فدخل القوم الى الكنيسة معها ووضعوها بقرب قبر الشهيدة. واذا بها شهقت شهقةً ظنوها حشرجتها الاخيرة وصرخوا طالبين بان تُنقل الى المستشفى. لكنَّ بولين اشارت بان يتركوها تموت هناك فبقيت ساعة بين حيَّة وميتة واذا بعرق اخذ يسيل على وجهها والدموع تترقرق من عيونها فقامت معافاة واقبل الجموع يصرخون: فلتحيَ الشهيدة! شكراً للقديسة فيلومينا! وبعد أيام عادت بولين الى رومية وذكرت الحبر الاعظم بوعده. وكان البابا يشكُّ انها هي التي رآها قبل اسبوع فشكر الله على شفائها ورأى انَّ هذه المعجزة انما كانت جزاء الربِّ لتلك التي وقفت نفسها لخدمة الكنيسة بانشاء شركتي انتشار الايمان والوردية الحيَّة

ثمَّ رجعت بولين الى ليون وعدَّت شفاءها كفريضة جديدة تقضي عليها بتضحية حياتها في خدمة الله فتضاعفت غيرتها واجتهدت في توسيع نطاق مشروعيها السابقين فكانت تقضي الساعات الطويلة في مكاتبة مراسليها في انحاء اوربة وكان بينهم المطارين والاساقفة والاعيان وكل رجال الخير فيتلقون كلامها كضرب من الوحي

وفي تلك المدَّة افتكرت في انشاء شركة اخرى لنفعة الفعلة. فانها كانت ترى العمَّال والفعلة محاطين بضروب من المخاطر والاشتراكيون مع الفوضويين يسعون بتضليلهم وتهييج مطامعهم واستئصال روح الدين من قلوبهم ليحملوهم على الفتك وقلب الهيئة الاجتماعيَّة. فكان قلب بولين يكاد ينفطر لهذا المنظر مع علمها بان الفعلة مجبولون على السذاجة والاستقامة وحبِّ الدين والفضائل الاهليَّة ففكرت في طريقة تعالج بها هذا الداء فلم تر وسيلةً افضل من ان تنشئ معامل مسيحيَّة مبنيَّة

على اصول الدين والوفاق بين اصحاب المعامل وعمّالهِ لا يُقبل فيها غير الفعلة الحسني السلوك

وابتدأت بانشاء معمل كبير على حسابها كلّفها مبالغ كبيرة من خلقة والدها. فظهر هذا العمل بعد زمان كمشروع ملهم من الله لتسع روح الفوضى ونال في اوّل امرهِ نجاحاً كبيراً واثنى عليها الاساقفة واماثل الرجال الّا انّ بعض الذين كانت الآنسة بولين وثقت باستقامتهم معها في تدبير المعمل خانوها واوقعوها في مشاكل امرّت بقيّة حياتها واذاقتها كأساً من الاوجاع رشفتهُ بالصبر الجميل في السنين الاخيرة من حياتها

وكان معظم همّها ان لا يُصاب احد بخسارة لسببها فكانت تقضي أيامها ولياليها في الاشغال الشاقّة لتفي لكل ذي حقّ حقهُ. ورأت في تلك السنين كثيرين من اصحابها معرضين عنها كانهم لم يعرفوها

لكنّ خادمة الله لم تقنط بل اعتزلت عن الناس وعاشت منفردة تصرف زمانها في الشغل والصلاة وممارسة اسمى الفضائل وكانت اتخذت الاب دي راقنيان الواعظ الفرنسوي واليسوعي الشهير كمرشدها فكان يسندها في اوجاعها ويعزّيها في كل الاعمال التقويّة ولا سيما في حمل الصليب مع ابن الله المتألم لاجل البشر. فاضحت تحت ادارتهِ اشبه بجمرة كان الله يتنسمها برائحة الرضى ويفيض عليها اغزر هباتهِ السماويّة. وكانت في تلك حالة الخمول والاوجاع لا تفكر الّا في الكنيسة ورأسها المنظور وخلاص النفوس فكان الحبّ الالهيّ يضرم قلبها ويطهّر روحها كما يمحّص الذهب في البوتقة. وفي آخر سنة ١٨٦١ أصيبت بمرض عُضال دام عليها نحو شهرين وصبرت على مضضهِ صبر الملائكة دون ان يخرج من فيها كلمة واحدة تدلّ على سأم او تمرمر. وغاية ما كانت تنوه بهِ ان يقبل الله اوجاعها لينصر الكنيسة على اعدائها ويلطّف اكدار ابي المؤمنين بيوس التاسع. وكانت آخر كلمة لفظت بها شفاهها: « فليكن قلب يسوع معروفاً ومحبوباً ومجّداً في كل العالم الى الابد » ثمّ انطفأت كما ينطفئ السراج بهدوّ وسكينة. فكان يلوح على محيّاها سلام الله. وكان موتها في ٨ كانون الثاني من السنة ١٨٦٢ ولم يشيّع جنازتها الّا بعض الاصحاب

وجُعل على ضريحها صفيحة بسيطة مع هذه الكلمات: « هنا قبر بولين ماري جاريكو منشئة شركتي انتشار الايمان والوردية الحيَّة »

لكنَّ الله الذي يبتلي اولياءه في هذا العالم كثيراً ما يعظم اسمهم ويرفع ذكرهم بعد مماتهم. وهذا ما حدث لبولين جاريكو فانَّهُ تعالى منح نعماً غزيرة لمن التمسوا شفاعتها من جملة ذلك شفاء امراض وازالة عاهات ونجاة من بلايا استدعت السلطة الكنسيَّة بان تهتمّ بتثبيت قداستها. فنشروا ترجمة حياتها وجمعوا الشواهد على النعم الملتمسة على يدها وارسلوا كل التعليمات الى رومية لتفحص هناك فحصاً مدققاً. وقد جاء من رومية في تاريخ ٣١ آذار من السنة الحالية ١٩١٢ انَّ مجمع الطقوس باشر بامر تطويبها ووكل الى نيافة الكردينال فرَّاتا الاهتمام بهذه الدعوى

فلا مراء انَّ ادراج اسم المكرَّمة ماري بولين في سجلّ الابرار سيبعث في النفوس غيرةً جديدة لمساعدة شركة انتشار الايمان والوردية الحيَّة. وقد بين الله بعد وفاتها انَّهُ هو الذي الهمها ايضا انشاء المعامل المسيحيَّة فانَّ رجالا من ذوي الهبة ادركوا ما في هذا المشروع من المنافع لردّ غارات الاشتراكيين والفوضويين ونشر روح الدين بين العملة فانشئت معامل متعددة على شبه المعمل الذي انشأتهُ خادمة الله بولين جاريكو وقد اضحت منذ اربعين سنة هذه المعامل من اشرف واعظم المشروعات الاجتماعيَّة التي تفتخر بها الكنيسة الكاثوليكيَّة وتشهد لحسن نظر منشئتها الاولى جازاها الله الف خير واقام في شرقنا العزيز من يقتدي بصلاحها وغيرتها لمجد الله وفائدة الوطن

تاريخ حوادث الشام ولبنان

من السنة ١١٩٧ الى ١٢٥٧ هـ (١٧٨٢ الى ١٨٤١)

عني بنشره الاب لويس معلوف اليسوعي (تابع)

ثمَّ في ثمانية ايام من شهر شباط مات الامير فارس بهذه السنة صباح الخميس بداء الاستسقاء ولستقام بالمرض ثلاثة شهور واخذوه للساحل لدير البشارة بالزوق.